اليهود تحت الحكم الإسلامي في الأندلس[1]

أ.م.د رضا هادي عباس / جامعة المستنصرية /كلية التربية

التعاون العبري في ضياع أسبانيا (الاندلس)

اتفق الباحثون المعاصرون – ومنهم اليهود – على موافقة السكان العبريين، وهم الجالية اليهودية، في التعاون مع الغزو الإسلامي (لأسبانيا) وصدى هذه الخيانة بسبب روح العداء الموجودة في أصول العصور الوسطى.وكان نشاط اليهود المناوئ للملوك القوط لحالة اليأس التي انتابتهم يومذاك.. ذلك أن تدوين قانون تيودوسيو الثاني TeodosioII المسمى بريباريو دي الآريكو Breviariode Alarico استمرت عشرة من هذه القوانين الرومانية خلال حكم الملوك الذين أقروا الشروط ومنها التمييز ومنع التبشير وعقوبات رادعة لمن يحرر عبداً كذلك منع اعتماد (التصديق) على الزواج فضلاً عن منع بناء معابد يهودية جديدة (كنيست) وعدم السماح لهم بتسلم مناصب قضائية للمسيحيين.

إن الفوضى التي عمت البلاد حالت دون تطبيق هذه القوانين وكانت موجهة إلى قمع اليهود ولكن يوجد شك في تطبيقها بسبب فوضى البلاد.

بدءاً من المجمع المسكوني الثالث في طليطلة عام 589م في زمن ريكارد Recared
الذي اعتنق الكاثوليكية اتخذ أسلوباً صارماً تجاه اليهود فقد أصدر قراراً بتحرير (عتق) عبيد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية أو الذين تم ختانهم، كذلك منع اليهود من اتخاذ الأحرار خدماً لهم، وبعد ذلك أصدر قرارات بتعليم أبناء اليهود في مدارس مسيحية وأُجبر الذين اهتدوا من اليهود على العمل في التجارة مع أقاربهم

[1] اليهود الأسبان في العصور الوسطى،لويس سوارث فرناندث،نشر ريالب،مدريد1980، ص35-61، ترجمة أ.م.د. رضا هادي عباس، الجامعة المستنصرية- كلية التربية.

كذلك منع من الاحتفال بطقوس الختان حتى منعهم من الاحتفال بالزواج على الطريقة المسيحية وأخيراً فالملك رثيسبينتو Recesvinto أمر جميع اليهود بالتعميد، وفي عام 695 اتهم الملك آخيكا Agica اليهود بمؤامرة ضد البلاط.

في أواخر القرن السابع كان النظام القوطي مكروهاً لأنه كان مزيجاً من الطغيان والضعف وفوضى القوانين وأدخل البلاد في صراعات خطيرة حول ولي العهد وكان اليهود من ضمن ضحايا هذه الصراعات. وعلى الرغم من درجة الفوضى كان الحاكم (الإمبراطور) يمنع حتى الذين طبقوا القوانين من البقاء على قيد الحياة.

ولكن بعد سنة 695م – ويجب الإشارة بشكل خاص إلى تجاوز الملك آخيكا للمجمع المسكوني السابع عشر بطليطلة– حيث بلغ العداء لليهود الذروة عندما أصدر قراره بمصادرة جميع ممتلكات اليهود وتوزيعها على أبنائهم لأنهم تعلموا وتربوا في مدراس اليهود، إن هذا الوضع المزري جعل اليهود في يأس ولهذا فإن أكثر الباحثين المعاصرين يذهبون إلى وجود اتصالات كانت بين اليهود في شبه جزيرة إيبيريا والمسلمين الذين بسطوا سيطرتهم في شمال أفريقيا، لقاء منحهم الحرية الدينية.

الحوليات المسماة "أخبار مجموعة" التي ذكرت عن الغزو عام 711م قدَّمت خبرين محددين هما: وجود قوات يهودية بقيادة خوله اليهودي (توفي عام 718م) لمساندة الغزاة، وإعداد حاميات عسكرية إسرائيلية في غرناطة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة تسمح للغزاة (الفاتحين) بحرية الحركة.

عملت الحكومة الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا بشكل عملي على تحسين الوضع القضائي والاقتصادي لليهود ولكن من غير قانون للحرية الكاملة. فألغت

الاضطهاد واعترفت بالشعب الإسرائيلي لأن اليهود أهل كتاب ومن حقهم ممارسة طقوسهم الدينية.

لقد رفض اليهود احتضان الإسلام والسلطات الجديدة كما رفضوا من قبل المسيحية في أسبانيا وبسرعة ظهر وضع غامض لهم، فإنهم لم ينتظروا حاجة أخرى أكثر من كرم التسامح.

الوضع الراهن لليهودية نبه ليفي بروفنسال على أن الوثائق عن اليهود الأسبان في القرون الأولى للحكم الإسلامي كانت قليلة، باستثناء بعض الأخبار المنتحلة (مشكوك فيها) ولكن تكوين الفكر بدءاً من القرن العاشر كان أكثر أهمية من عدم إمكانية الشرح بدون القانون السابق للمجتمعات المتعددة والقوية في أسبانيا.

كان (الأمير) عبد الرحمن الأول (الداخل) في قرطبة المحفز على الاستقرار حيث تذكَّر اليهود المعاملة الجيدة للحكم الأموي في سوريا، ومع ذلك فأن التشريع الإسلامي اعتمد بعض ألوان السلوك المحددة التي ظهرت نتيجة مواجهة الرسول محمد (ص) للتجمّعات اليهودية المتطرفة في يثرب، ومن هذه:- أن على اليهود لبس ملابس خاصة لتميزهم عن غيرهم، ومنعهم من ركوب الخيول، وإقامة صلواتهم بصوت خافت، وأن تكون دورهم ومعابدهم على ارتفاع محدد، وستظهر لاحقاً هذه التنظيمات في التشريعات للممالك المسيحية (في شمال أسبانيا).

إنَّ اليهود المقيمين في – أسبانيا عند فترة الفتح – لم يؤدوا أية مهمة من وجهة النظر العلمية والثقافية على وفق الأخبار المأثورة.

وبعد سنة 711م كانت شروط التغيير جذرية وأُدخل في الأندلس نظام الحكومات الإسلامية التي سمحت بالاتصال السهل والمباشر بمشاهير علماء المدارس الربانية في صور وPumbedita.

نحن نعرف على سبيل المثال نانترونال Natronal في صور (لبنان) (853-856)

أنه أعد مجموعة صلوات بناءً على طلب يهود مدينة (لسانه) منها أكبر تجمع يهودي (في الأندلس) حيث لا يوجد وثني.

ثم جاء ولي العهد عمرام (856-874) الذي استطاع جمع قوانين للمدينة الصغيرة برشلونة التي كانت مسيحية وهذه المجموعة كانت عبارة عن صلوات وطقوس مع مواد مأخوذة من التلمود.

ولا يوجد شك في أن العلاقات مع المشرق كانت مفيدة لليهود الأسبان الذين كان لديهم نصوص توراتية صحيحة كذلك للمستعربين في القرن التاسع الميلادي الذين بدؤوا بتحديد " المؤيدين للحقيقة العبرية" لتمييز الترجمة (الرواية) الخاصة بالسبعين ولكن الطريق نفسه يخدم لضمان الاتصال بالمصادر التلمودية البابلية، كذلك وصل لأسبانيا Los Caraitas [1]، حيث كان انشقاقهم مع مدارس صور وPumbedita التي أنجزت عام 767م عنان بن داود مؤلف كتاب ميسنا والتلمود والقابلا مشترطاً شرحاً مباشراً وحراً وفي بدايات القرن الحادي عشر قدر الربانيون بأن انشقاق Los Caraitas كان خطراً عظيماً.

نقاش المستعربين

[1] عقيدة دينية يهودية ترفض التقليد وتؤيد الشك للنص الأدبي للتلمود، (الكتاب المقدس القديم).

في نهاية القرن الثامن الميلادي قرر الأمير هشام تعليم جميع أبناء اليهود بدون تمييز بينهم في المدارس الأندلسية من أجل تعليم اللغة العربية إلا أن هذا القرار أغضب المستعربين ولكن يبدو أن هذا القرار لم يزعج اليهود لأنهم أقبلوا على تعلم اللغة العربية للمحادثة وتأييد الحقيقة العبرية علماً بأن استخدام اللغة العربية للشؤون الداخلية والدينية على الرغم من اختلافها عن اللاتينية وحافظوا عليها لأنها لغة الحياة. والقرار الفريد أجبرهم على تعلم لغات غريبة ولكن سهّل تجارة بضائعهم ومنها العطور والبهارات (التوابل) والمواد الطبية والعبيد. ولكن هذا ليس مؤكداً ولا دقيقاً.

المسألة اللغوية أضافت إليهم عداوة مع المستعربين المعارضين للنظام الأموي وهذه المعارضة بدأت تدريجياً ثم انفجرت بالعدوان (الاعتداءات) عام 850 إلا أن اليهود تحسن وضعهم الجديد كما يبدو.

أعطى المؤرخون الأسبان أهمية قليلة لعداء اليهودية والاضطراب العارم الذي أدى إلى ظهور حركة الاستشهاد وكان البر القرطبي أحد الزعماء الروحيين لهذه الحركة وهو من اليهود الذين تنصروا (اهتدوا) أو من أسلافهم المهتدين، كذلك قام المرتد بودو (Bodo) الذي خُتن في سرقسطة والذي لُقب نفسه إليعازر Eleazar وشارك في الحركة وصرح كالآتي " من يكون أكثر شرفاً ممن يحمل اسم إسرائيل أنت كما يقولون اهتديت من الوثنية إلى الصلاة لله جل جلاله وأنت يهودي بالإيمان والدم أو أنا عربي بالإيمان والدم"؟ وأضاف البيان " لأنه وضع لي اسماً جديداً" وشرحاً لحالة المستعربين حيث خافوا من (غضب) السلطات الإسلامية لأن اليهود عُدَّوا مثل " فيروس إسرائيل" في بلاد المسيحيين.

حقيقة لا نملك بحوثاً عن نشاط المتطرفين في حادثة كنيسة طليطلة الذي أثار الزلزال (الثورة) للمتبنين إلا أن بعض الوثائق المكتوبة ساعدتنا في توسيع معلوماتنا عن الموضوع.

رئيس الشماسين إباندريو Evandrio كتب قبل سنة 737 رسالة عنوانها " رسالة ضد الأنجاس والفاسدي الدم" وهذه الرسالة لمحاربة الكتابات الموسوية (اليهودية) وبشكل خاص ملاحظة/ سباذ Sabbath مؤلف مجهول للكتاب.

وأن خوان خيل أرّخ أيضاً في القرن الثامن، إذ أكد في الخط نفسه أنَّ العداء للمسيحية سيكون من شروط (متطلبات) القانون الموسوي في القانون رقم (6) للمجمع المسكوني بقرطبة، ويُعدم علناً من يلقى القبض عليه من اليهود المتآمرين والهراطقة (المرتدين من أهل البدع).

كتاب (رسالة) قدس القداس لمؤلفه أولوخيو Eulogio حيث وضح أكثر عن استقبال المسيحيين للسيد المسيح المرسل الذي " أعلن نفسه راعياً للمدن والعالم بشكل كامل كما وضح (السيد المسيح) في مكان صغير من حي اليهود" أن اليهودي غيّر اسمه الديني من اسم يهودي إلى اسم مسيحي واستمرت هذه الحالة بشكل حقيقي، وهي النتيجة هي الأكثر منطقية ويعد هؤلاء المستعربون أعداءً لليهودية ولكن ليسوا أعداءً للسامية. وعند إيضاح البرو (الزعيم الروحي لحركة الشهداء المسيحيين) عن مضاعفة الوعود الآلهية لإبراهيم قال: " أن تعبير مضاعفة (زيادة) بذرتك كنجوم في السماء" يقصد من ذلك حقيقة إسرائيل للمسيحيين لأن اليهود استخدموا الشبيهة لرمال البحر، ولكن بدون توفر الخصوبة اليهودية.

أُعلنت بشكل سيئ بسبب تنازل السيد المسيح وكذلك رفض التثليث والتوجه إلى عقيدة الطبيعة الواحدة الراعين لتوجيه اللوم لهم: " إذا نتكلم عن شخص واحد في

التثليث، اليهودية" حدث مع ذلك مقاومة سلبية من قبل المستعربين هكذا مثل شكوى (خصام أو شجار) حول التبني الذي انتهى بسرعة.

المستعربون لم شاركوا بل هاجروا إلى الأقاليم الشمالية حيث كان اليهود أقلية فقيرة لا تأثير لهم ولكن حملوا معهم مع ذلك راية العداء للإسرائيليين ولم يدركوا الضمير كرُسُل حقيقيين للإيمان.

نقل المدارس التلمودية:- من المستحيل إعداد أية إحصائية عن الجالية اليهودية في أسبانيا خلال القرن العاشر ولكن المعلومات الموجودة تشير إلى أن نموهم كان بطيئاً.

في بعض المدن كونوا نواة مهمة لتكون أحياء خاصة لهم وبشهادة عبرية قريبة من مدينة لسانه وهي مدينة يهودية بشكل كامل وقد قدمنا سابقاً معلومات عنها كذلك مدينة غرناطة قبل تحويلها عاصمة لبني زيري في القرن الحادي عشر (عصر الطوائف) إذ كان أكثر سكانها من اليهود كذلك أكبر حي يهودي كان في قرطبة يقع بين القصر والسور الشرقي للمدينة وكان فيه باب يسمى باب اليهود واستمر هذا الحي إلى آخر يوم من طردهم (من الأندلس).

اعتقد ليفي برفنسال بوجود حي آخر لليهود في شمال قرطبة كذلك ذُكر عن وجود حي لليهود بطليطلة بتاريخ 820م تقريباً كان يسمى مدينة اليهود.

اعترف التشريع الإسلامي لليهود بحرية الحركة بشكل تام والتملك والصلاة داخل المعابد (الكنيست) كذلك كانت لهم ادخارات، ضماناً لدعمهم. لا يوجد أي شك سواء كان في الأندلس أم في بقية الدول الإسلامية المعاصرة للأندلس يهود تحدثوا مع ممثليهم عن التفاهم مع سلطات الخلافة (الأموية في الأندلس).

وفي منتصف القرن العاشر الميلادي كانت الجالية اليهودية في الأندلس قد حصلت على فرصة فريدة للازدهار بفضل المهمة السياسية الرائعة لواحد من أعضائهم (من اليهود) وهو أبو يوسف بن حسداي بن شبروط (915–970م) ولد في جيان لابن إسحاق بن شبروط، كان طبيباً مشهوراً وصيدلانياً وقيل عنه إنه اكتشف الترياق العالمي (دواء لكل داء) ومن الخدمات التي قدمها (للخليفة) عبد الرحمن الثالث المشاركة في اجتماعات القمة ذات التأثير السياسي. (ابن شبروط). وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة (ببلاغة) وكذلك العبرية واللاتينية وكان محدثاً مع بقية السفراء لاستقبال زوار بلاط قرطبة، فقد استقبل مبعوث (الملك) أوتون الأول Oton I وهو المصلح خوان غروته عام 956م.

كذلك عالج (ابن شبروط) سانجو الأول حاكم ليون من السمنة وقد هيأ هذا السبل لإخضاع هذه المملكة لكي يزيل ذل خسارة معركة شلمنقه .

شارك في عام 944 في حوار (اتفاق) تجاري مع قسطنطين الثامن في بيزنطه وانتهز هذه الفرصة للترجمة من اللغة اللاتينية إلى اللغة العربية في مواد طبية Dioscorides.

وفي القرن الحادي عشر تجول (حسداي) بين التجمعات (الجاليات) اليهودية في المدن النصرانية (الممالك الشمالية) برسالة كذلك أسند إليه إرشاد (هداية) ملك الخزر Los Khazaros إلى اليهودية.

كذلك يعد حسداي بن شبروط شخصية مهمة من ناحية أخرى وهي تأسيس أكبر مدرسة تلمودية أسبانية إذ كانت له علاقات جيدة مع المدارس الربانية في القيروان وقسطنطينة في شمال أفريقيا كذلك مع مشاهير علماء بابل. وبعد اختفاء سعاداي هاغاون سنة 942م، صور وبومبديتا Pumbedita جربوا بسرعة

الاختفاء (بعد زوال المدارس المذكورة في أعلاه) انتقل مشاهير علمائها إلى أسبانيا منهم: موسى بن إنوج وابنه، مثل هذه الحادثة حاسمة في تاريخ اليهودية بأسبانيا فقد عادت الأساطير لتكون حقائق مثل القبض على بعض القراصنة منهم موسى بن إنوج وآخرون حيث عدَّوا رهائن (فدية) من قبل الوزير ثم نقلهم إلى كنيست (معابد) قرطبة عام 918م وقد ازدهرت فيها الحركة التلمودية لوجود أشهر العلماء. في عام 965 ورث إنوج بن موسى منصب والده في إدارة المدرسة التلمودية وعُدَّ إنوج دائماً من حاشية المنصور. ولا يمكن التصور بأن الحياة كانت هادئة في المدرسة التلمودية بقرطبة فحسب بل كانت مدرسة محافظة على التقاليد العبرية وحدثت توترات شديدة بين المعلمين الجدد والقدماء وصراعات حول الدراسات الربانية.

ومن جانب آخر انتقلت المعرفة اليهودية عن الإدارة من أجل تكوين وسط (بيئة) عربية، مجبرين على اختيار تعبيرات لعلماء قرطبة متأثرين بالشعر العربي الذي استخدموه وأثر في اللغة العبرية وأثراه في تطوره مع استخدام التفسير (الشرح) للكتابات وإغناء بكثرة لكتاب ميسنا Misna الأصلي.

أيدوا في قرطبة الفكرة القائلة بأن الإسرائيليين الأسبان هم من سلالات أصلية ونقية تعود لقبائل خودا Juda وابن خامين وهم يهود حقيقيون.

النحويون والشعراء

يوافق في العصر الأموي الرائع (بالأندلس) صدور قرار للطاغية المنصور، وظهور الجيل الأول المكون من كبار الشعراء النحويين فضلاً عن ظهور نزاع حاد يمثله لامن ميناحيم بن سروق (910–970م) من مدينة طرطوسة وهو من تلاميذ حسداي مؤلف لكتاب ماحبرت كما ألف أول كتاب في علم المعاني العبري حاول

فيه التركيز على معنى جذور الكلمات عارضاً ذلك على الباحثين الجدد (المعاصرين في تلك الحقبة) للمقارنة مع علم العروض في الإنجيل.

دوناس بن لابرات (920–980) من مهاجري بلاد الرافدين شارك مع ميناحيم في معارضة علماء بابل وكان نجاحه كبيراً في إدخال علم العروض العربي إلى الشعر العبري، مستخدماً المؤلفات المقدسة بأسلوب رقيق المشاعر وبشكل خاص في الشعر الإسلامي الفصيح، أما الثالث من علماء الجيل الأول فهو حواده بن داود حجوج (940–1010م) من مواليد مدينة فاس (المغرب) سماه العرب أبا زكريا تقديراً له بشكل عام لأنه عُد مؤسساً للنحو العلمي باللغة العبرية بطريقة محافظة ومازال سائداً إلى اليوم بهذه الطريقة وخلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي كما أوضح (الكاتب الإسباني المعاصر) مياس بايكورسا أنَّه حتى المجتمع في قرطبة وصل إلى مرحلة متطورة من الثقافة العبرية بفضل تأثير اللغة العربية في رسائل الفكر اليهودي، حتى افتخر اليهود بالثقافة العربية.

اهتدى اليهود الأسبان (الذين هم من أصل شرقي) إلى الوطن الثاني –ولم يهتدوا (يصلوا) أبداً إلى الوطن الأول لأن النظرة والتفكير كانت باتجاه القدس– وأن الشعراء عبروا بمشاعر حارة.

لحد الآن وبعد قرن من الزمان يكون الطرد من شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) والعيش في مصر وجماعة الحركة الميمونية ألحت بوصفهم هكذا بالسفردي (يهودي إسباني) من أصل شرقي. كانت القاعدة الأساسية لهذه الثقافة واستمرت بطابع ديني لأن الإيمان الموسوي بوجود اليهودية الذي تؤكد وجودها بنفسها وبهذه الخطة لم يحصلوا على تأثيرات عربية.

قدم (الكاتب) مياس عملاً أساساً وهو أن اليهود استخدموا الشعر العربي واعتمدوا طريقة التأليف (المزج التوفيقي) منها:–

هذه المقاطع الشعرية بأوزان العروض الثنائية والثلاثية والرباعية (مقيدة أو أحادية القافية) قد ظهرت في الشعر القشتالي (الإسباني) في القرن الثالث عشر إذ أعطت للغناء حياة ومظهراً اختيارياً للروح الإسبانية أمام الغناء الفردي الملحمي المكون من ثمانية مقاطع إلا أن الشعراء اليهود عاشوا حياة أقل احتراماً وأدخلوا في مؤلفاتهم العاطفة والحياة الدينية الخاصة بشعبهم كذلك تناولوا الموضوعات الدنيوية وهي غير قابلة للضغط من قبل المؤرخين وهي ظاهرة اليهودية الإسبانية.

ظهور النواة القرطبية

عرفت المدرسة القرطبية الانحدار النهائي بشكل بطيء . وكان الجيل الثاني من الشطر الثاني والنحويون أقل لمعاناً (أقل ازدهاراً) من الجيل الأول لأن الجيل الأول كان أكثر تأثيراً في الانشقاق (النزاع) الداخلي كذلك الصعوبات في مناقشة النظام العامري (الخلافة الأموية في ظل ابن أبي عامر).

ولا نعرف ما الأسباب في منع يوسف بن سونانوس بن أبي تور من طلاب موسى بن إنوج الذي عمل قاضياً ولكن يكفي أن نعرف بأن هذا الشاعر ترك إسبانيا كما يوضح في رسائله (كتاباته) التطور المتوازي بين الشعب الإسرائيلي والملائكة الذين يحيكون عرش الله. وجدت في رسائله شكوى ضد العرب بسبب اضطهاد اليهود. وبعض الشيء تبدل السماء الجديدة للمدرسة، و(المعلمون) من أمثال إسحاق بن جياتيليا، وإسحاق بن ليفي مار ساوو، وإسحاق بن كاربون أو إسحاق بن خلفون كلهم ينتسبون إلى المدرسة التقليدية وهم أكثر محافظة (تقليداً) ومن المؤسسين (الرواد) يعقوب بن غان الذي توفي قبل سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.

شارك اليهودُ في الحروب الأهلية في العقدين الأخيرين من القرن الحادي عشر الميلادي بشكل غير مباشر، (الأميرَ) محمد الثاني عاون التجار اليهود الأسبان

لضمان تأثيرات رامون موري حاكم اشبيلية وبهذه الطريقة عدوا اليهود أعداءً للبربر وعاملوهم بقسوة وانتقام في التاريخ التقليدي اليهودي، ويسمى بحرب البربر (الفتنة البربرية) حيث يبدو أنها أكبر كارثة حاسمة في تشتيت اليهود الهاربين (الفارّين) الذين عاشوا في أحياء يهودية بمدن أخرى ومنهم ابن خلفون الذي بحث عن ملجأ في غرناطة ومنها انتقل إلى سرقسطة حيث بدأ بتأسيس مدرسة صارت فيما بعد أهم مدرسة. وفيما يخص (نتائج) خراب قرطبة يجب القول – وبدون شك– أنه قد (أعقبتها) أكبر هجرة لليهود اتجاه الأراضي المسيحية.

أقدم المعلومات عن وجود اليهود في الممالك المسيحية (شمال أسبانيا)

بدون شك أن تكوين بعض النواة الصغيرة للجالية اليهودية في الممالك المستردة (المسيحية) بعد تشتت الجماعات اليهودية في قرطبة، وضع اليهود عنصراً ضرورياً للمحافظة على التجارة الخارجية.

توجد في بعض الوثائق معلومات مكررة نسبياً عن مزارع الكروم التي توضح بأن (الجالية اليهودية) لها تجربة فنية في زراعة الكروم وسرعة الجني.

وفي مجال آخر حول التجارة والزراعة والنشاطات الاقتصادية الوحيدة نلاحظ صمت الوثائق (ندرة المعلومات) بشكل مطلق في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. كذلك لا تسمح لنا معرفة تاريخ وصولهم (للممالك النصرانية في شمال أسبانيا) كل ذلك بسبب قلة (الوثائق) وعدم التمييز بين اليهود والمسيحيين.

لقد فاوض يهود برشلونة في بلاد كارلوس الكالبو سنة 876م وطلبوا مسؤولية الرباني عامر بن غاون (869–887م) بستاني كروم يسمى ناباث ظهر بسرعة تحت الأنظار عام 905م ويوجد كرامون (حُراس أو مُلاك بساتين الكروم) آخرين مثل ماير، موسى وابن بنست الذين جاؤوا إلى برشلونة بين سنة 963م وسنة 984م واستقروا في مونت خويج (جبل اليهود) في 985/6/7 وهاجمت قوات

المنصور برشلونة وقتلت كثيراً من اليهود حيث استولى رامون بوري (حاكم برشلونة) على ممتلكاتها كمظهر للعدالة القضائية في البلديات القشتالية والليونية كذلك قانون ملكية الأراضي وبشكل ثابت.

وهذا يدل على وجود اليهود (في هذه الممالك) ولكن – من غير شك– هي معلومات نادرة وغير دقيقة. في منطقة خوريو دي كاسترو خريث.

وفي إقليم ليون بعد نصف قرن (في سنة 1017 أو سنة 1020) يُقيم اليوت التي شيدت على أراضٍ زراعية تخص مستعمرات لاثنين من اليهود واثنين من المسيحيين في مدينة ليون وجدت حالات كثيرة حتى أن (المؤرخ المشهور) سانجث البورنث أفضل متخصص بهذا الموضوع يعتقد بأن الجالية اليهودية كانت في القمة إلا أنها لم تشارك في استرجاع مدينة طليطلة. ولا يوجد مع ذلك مصطلح (معيار) للمقارنة بين يهود برشلونة حيث ذُكر (60) داراً (عائلة) عام 1079م.

كان الوضع الراهن لليهود خلال هذه السنوات من بداية القرن الحادي عشر الميلادي صعباً لأن مجتمع العصور الوسطى له خاصية غريبة وأن القارئ المعاصر يجهل ذلك بالطبع.

وبشكل عام يمثل الدين التسامح– فالمسيحيون يعتقدون بأن اليهودية تكونت بشكل تام في عصر السيد المسيح– ولكن بشكل مؤقت– وتوجد شهادات وأمل بأنه سيأتي اليوم للوصول إلى ضوء الحقيقة–.

بايير الأول Baer I لاحظ في مجال آخر بأنه " لا توجد تحديدات قانونية لتملك الأراضي" " فقد امتلكوا عن طريق الإقطاع بدون إتاوات (ضرائب أميرية) أو بالتأخير"، ومن جهة أخرى اهتدى كونت (حاكم) مدينة برشلونة إلى السيطرة على أملاك أوصياء الموتى. وهذا لا يعني بأية طريقة استخدام (الرق).

تبدو الطبقة الاجتماعية للشعب الإسرائيلي في أراضي الممالك المسيحية كضيف لا يتمتع بالضمان– لأنهم لم يندمجوا بالمجتمع المسيحي، إن الملك أو الأمير أو صاحب السيادة أراد منح اليهود (عفواً أو جائزة أو تعويضاً)، الوثائق تستخدم مثلاً خاصاً بالأملاك لسد حاجة الملك ولكن لا تبحث في أية حاجة شخصية بل لمجموعة شعب.

ازداد خلال القرن الحادي عشر حجمُ ثقافة اليهود القاطنين في الأحياء المسيحية وطبيعة تلك الثقافة وبشكل بطيء، أبناء إسرائيل (خبراء باللغات، وعمال معروفون بتقنية زراعة العنب) وكانت تحت أيديهم النقود وحولهم عدد كبير من الفقراء المسيحيين.

إنَّ الوثائق القطلونية هي الأكثر حول هذا العصر التي تؤكد هجرة عدد من اليهود من الأندلس وفي الأقل بعد سقوط الخلافة (سنة 422هـ) واستقروا في برشلونة وخيرونه حيث اشتروا (بساتين) العنب بشكل خاص. وذكر كثير من مُلاك اليهود بأن الحاكم رامون بيرنغير الثاني وشقيقته التوأم بيرنغير رامون الثاني بتاريخ 1079/5/17 وزعوا ممتلكات اليهود. ولا توجد أسباب تذكر بأن الحالة كانت تختلف عن بقية الأقاليم الأخرى بدون وثائق.

سَبَّبَت زيادة الجالية العبرية في مملكة ليون، مشاكل عديدة لفرناندو الأول الذي حاول إصلاح التقويم الكنسي الملكي القوطي.

هل يمكن إصلاح مضاعفة التشريع الخاص بإدانة اليهود الهاربين؟ ومن جهة أخرى لا يوجد أي شك بين صفوف المسيحيين الذين كانوا يحركون العداء لليهودية: 60 يهودي اغتيلوا في مدينة كاسترو خريث Castrogeriz عند لحظة موت سانجو الثالث عام 1035م فضلاً عن ما ذكر سابقاً في الفويرو El Fuero من أجل حمايتهم (من الاغتيال) والحالة نفسها في مدينة Allariz التي تقع قريباً

من البلدة Albelda وذلك عام 1047. (الحاكم) فرناندو ترك القانون القوطي معلقاً (بدون تعديل) وحمى اليهود بكفالة البابا الاسكندر الثاني الذي أرسل له قراراً بابوياً لتسهيل الوضع.

وفي منتصف القرن الحادي عشر استقر الوضع تقريباً على النحو الآتي:-

على المسلمين أن يكونوا مقاتلين ولكن على اليهود مقابل ذلك تقديم (الحماية) والمعاشرة (المخالطة) على غرار المسيحيين.

من غير الممكن الوصول إلى نتائج مغلوطة. عندما ترون تعابير في الوثائق هي ليست دقيقه مثل: خيانة أو Saevitia[1].

المجمع المسكوني في Coyanza عام 1050م أصدر أول قانون تشريعي يُعد بداية لمرحلة جديدة، نُفذ القانون الذي يمنع سكن (إقامة) المسيحيين مع اليهود في دار واحدة بدون عزل بينهم.

في الحقيقة هناك لقاء بين الطقوس الدينية العبرية والطقوس الوثنية، ولكن الاختلاف في القصاص. ففي المجمع المسكوني لخيرونه وفي عام 1068م ذُكر أيضاً أن أراضي اليهود التي اشتراها المسيحيون، استمروا بدفع ضماناً لهم العُشر للكنيسة، وجاء في مصدر آخر أنَّ المنقادين يدفعون الضرائب ويحافظ عليهم بالصمت، وأن المالك يضع في المزرعة مقابل ضمان الاستسلام.

الطوائف، كتاب ابن نغريله

بعد النكبات التي رافقت سقوط الخلافة وظهور الطوائف أصبح لليهود ملجأ سلام وانتقال أو تغيير مراكز التجمع. فبعض اليهود عادوا إلى قرطبة ولكن لم يتمكنوا من إعادة المدرسة القديمة في غرناطة بالمقابل أقيم فيها أهم الأحياء

[1] تعذر معرفة هذا المصطلح لأنه لم يرد معناه في القواميس المستخدمة في هذه الترجمة.

اليهودية، ومنها شجعت من جديد النشاطات في مدينة لُسانه. أيضاً بنو عباد في أشبيلية وشجع الهجرة إليهم ولكن اليهود هاجروا إلى سرقسطة لتكون المقر المناسب للمحافظة على الثقافة الربانية وفيها أقاموا نهضة عظيمة بتقديم أشهر العلماء منهم: ابن جبريل، وابن باقوده وخوداه هاليفي. وتميز عصر الطوائف بالحرية الفكرية مع فساد (أخلاقي) فكانت فرصة جيدة لعلماء اليهود حيث الرعاية من إخوانهم اليهود ممن تسلموا مناصب في البلاط.

إنَّ قانون محاربة الفلاسفة الذي شرعه المنصور قد تم إلغاؤه (في عصر الطوائف) وهذه فائدة للمفكرين اليهود: فسادت المناهج الأفلاطونية الجديدة التي تشرح الرياضيات والفلك بجانب الطب.

وفي هذا العصر ظهرت أهمية كبيرة لكتابات صموئيل هاليفي بن يوسف بن نغريله هانخيت، وهو من مواليد مدينة ماردة ودرس العلوم الربانية بقرطبة على يد أبي زكريا خوداه بن داود– الذي عد ابن حسداي من طلابه المخلصين– وأن الحرب البربرية أجبرته على الهجرة، فقصد مرسيه ومنها إلى بلنسية. أما الطالب (ابن حسداي) فقد رافق عائلته قاصداً مالقة إذ عمل بتجارة الأدوية (العقاقير). وكانت معلوماته التلمودية واللغات الأيبيرية (الأسبانية وغيرها) عميقة حتى قيل بأنه يتقن سبع لغات من ضمنها اللغة اللاتينية والبربرية. وقد أثارت كفاءته كاتباً ومؤلفاً انتباه الوزير ابن العريف الذي نصح الملك حبوس في غرناطة بترقيته بسرعة لعدة مناصب منها وزير وقائد الجيش ومنذ سنة 1027 أصبح أميراً (نخيدو بالعبري) لليهود وتوجد وثائق معاصرة كثيرة تؤكد بأنه جمع الذكاء والطب. ومظهره الخارجي فقد أكد ابن حيان أنه صنهاجي يشبه المؤرخ العربي يعني بربري بالدم. ساند ابن نغريله ولي العهد باديس ابن حبوس فقد استمر وزيراً له (وفي عهده) ازدهرت هجرة اليهود ولكن بدون الالتصاق فيما بينهم وقسم آخر منهم هاجر إلى أشبيلية.

الشاعر والنحوي والتلمودي التقليدي قد حُفظ عنه 1742 قصيدة شعرية ذات أغراض دنيوية وكان عاشقاً للطبيعة والحب الإلهي " جميع المخلوقات، الروحانية، تنادي باستمرار بأن روحه المهذبة لا تبعده عن الحمد لله. جوهر اليهودية الربانية"[1].

اتجهت الجالية اليهودية بغرناطة نحو المأساة بسبب نمو علاقات صارمة وشديدة مع زعيم السياسة اليهودية (ابن نغريله).

في عام 1055 توفي صموئيل فخلفه ابنه يوسف الذي اهتم بتربيته ليخلفه في منصبه عشر سنوات إلا أنه في عام 1066 ازداد الحقد ضد الوزير بسبب حركة اضطراب عاصفة (بغرناطة) قُتل فيها ابن النغريله وأعداد كبيرة من اليهود. ومُنع اليهودُ الناجون من الإقامة في غرناطة. منح الملك المعتمد (بن عباد) الفلكي والرياضي إسحاق بن آباليه منصب الرباني الأكبر لليهود في كل مملكته وبفضله استطاع أن يحمي المهاجرين اليهود ويعيد إصلاح المدرسة الربانية التي كانت سابقاً في غرناطة. وفي هذه المدرسة (بأشبيلية) برز كل من إسحاق بن خوداه بن موسجميا ويوسف بن ميسغاخ في الطب والفلك.

إنَّ تطور الإسرائيليين أيقظ فيهم اللوم في سرقسطة ونشط اللاجئ البارز من بين معلمي لُسانه خوناه بن جناح (985–1050) واسمه لدى المسلمين " أبو الوليد مروان بن جناح وبفضله وصل النحو العبري إلى مرحلة النضوج وفي كتابه الأساس (البحث الدقيق) قدم فيه نتائج عمله بإدراك معنى جذور اللغة العبرية وإعادة إصلاح النصوص العبرية بنزاهة، التقى صدفة في المدرسة الجديدة (المجددة) بسرقسطة، موسى بن صموئيل ها كوهن جيكانيليا وهو الأول الذي أكد

[1] انظر مختارات من نصوص الأدب العبري الأسباني.

بأن " بعض المزامير هي قبل النفي بموجب النص الإسرائيلي" يوجد اثنان من المؤلفين يختلفان بشكل تام.

كتاب ابن جبريل

سمحت البحوث الفكرية لمدرسة سرقسطة للشعر الديني الصوفي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كوسيلة ثقافية سيبقى مُحافظاً عليه لاحقاً. كانت النتيجة هي الخلط بين النحو والتعليم التحريري (الكتابي)، الشعر العبري باللغة العربية هو الوسيلة الأولى للتعبير عن الفكر اللاهوتي– من ضمنه التفسير وتقييم الكون– أثر بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر في كبار العلماء المسيحيين اللاحقين وبالطريقة ذاتها تأثروا بالبيزنطيين. كل هذا منح أهمية أكبر من وجهة النظر الأوربية لسلمون بن جبريل واسمه لدى العرب سبيرول وباللاتينية ثيبرول Cebrol أو ثيبرون Cebron ومن هذه التسمية الأخيرة جاء اسمه ابن حبرون Avicebron والمعروف بالمدرسي (التابعي). ولد الفيلسوف في سنة 1020م تقريباً، وينتسب إلى عائلة مهاجرة مثل ابن نغريله قد بحث عن ملجأ له في مالقه وأخيراً في سرقسطة وفي هذه المدينة بقى سنوات قليلة تحت رعاية جكوتيل الذي أهداه قصيدة رثاء رائعة.

ومن المحتمل أنه كان مصاباً بالدرن (السل) وقد شاخ بسرعة، وعاش يتيماً ولم يرغب في الزواج وهو قرار عجيب ليهودي– حيث عاش منعزلاً في حياة بؤس مرّة.

ويقول موسى بن عزرا بأنه توفي بمدينة لسانه عام 1050 ولكن من المحتمل أن يكون ذلك عام 1058. وآخر معلومة لدينا عنه في سرقسطة في سنة 1045م. النقد الحديث يقارن بشكل تام مع أراء معاصريه الذين حاوروه في قمة الشعر

العبري يسميه إنريكه هيني "الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء" سمة رائعة من سماته التي صارع فيها الشهوانية.

كتب ابن جبريل بالعربية دائماً وألف في النحو (قصائد) إذا قرأت حروف أوائلها شكلت اسم المؤلف أو المهدى إليه أو رمزاً ما وهو فن لتقوية الذاكرة وعنوان كتابه "طوق الأحجار الكريمة" ولكن كتابه المهم والأساسي هو Fons vitae وهو الكتاب الوحيد الذي بقي مترجماً باللغة اللاتينية وقد أدخله إلى طليطلة في القرن الثاني عشر كلٌ من خوان أسباني (ابن داود) ودومنغو غونثالث وبعض النصوص العبرية المترجمة من قبل شمتوب بن فالاقيرا وفي العصر نفسه تحت عنوان Meqor hayyin.

كان اللاهوت حسب المذهب المدرسي (التابعي) ذا تأثير وأنهم استخدموا كتابه بدون الانتباه على أنهم استخدموا كتاباً لاهوتياً عبريا. والتمييز بين ابن حبرون وابن جبريل لم يكن ثابتاً بشكل تام حتى سنة 1854 بسبب (ظهور) سلمون مونك.

(كتاب) "مصدر الحياة" مثّل قمة الفلسفة اليهودية العبرية بمنهج أفلاطوني وكان التأثير الأفلاطوني بارزاً ولكن وفاء ابن جبريل للقانون الموسوي سمح له بمزج كل مناهج الإدارة الإلهية مع تغيير في المعنى.

العالم المادي هو انبعاث متتال من كينونة روحيه بشكل مطلق. الإرادة الإلهية تُعرف الكينونة الإلهية ومنها تنبثق المبادئ الأساس " المادة العامة" و " الطريقة العامة".

تلكما الكينونتان الفرديتان لهما صفة مشتركة (عامة) وتكون مادة الاختلاف هو في الطريقة. سلسلة التحول المتتالي (المتعاقب)– الذكاء الكوني– الروح، الطبيعة، عالم ما بعد القمر وعالم أرضي (ما بين الأرض والقمر)– تصدر (تنبعث) الحقيقة الملموسة التي نعرفها ولكن فيها حضور الإرادة الإلهية.

مشكلة ابن جبريل تتكون من التوفيق بين آراء أساتذته العرب والحركة الأفلاطونية الجديدة حيث أعطى لهم شكلاً (معنى) قريباً من المادة الميتافيزيقية الباقية وإيمانه الخاص الذي أشار إليه بطريقة هو الله، نقي سامٍ، خلق العالم (الكون) بفعل حُر وبإرادته. وجدت الإجابة بدءاً من خاصية طبيعة الإنسان[1].

وفضلاً عما ذكر وفوق كل شيء كان ابن جبريل شاعراً وهو من أكبر الشعراء الذين ولدوا على الأرض الأسبانية حيث امتاز شعره بميزتين هما الغزل العبري السامي والرقة منسجماً مع حلاوة التفاؤل الذي اختص به الشاعر (ابن جبريل) استخدم في شعره كثيراً من المعارف الفلسفية، الفلكية والكونية لأنه كان متأثراً بحركة قابيليستا Qabalistica وكانت تحريضاته هي عرض وشروح لـ613 وصية (حِكم) من التوراة، واحدة منها تستخدم لحد الآن كخدمة (شعائر) دينية للجاليات (المجتمعات) اليهودية في حفلة الأسبوع المقدس (عيد الفصح).

كان لابن جبريل أكبر ديوان شعري هو " التاج الملكي" قدم فيه (400) بيت شعر في الغناء للإله وللخلق بأسلوب عاطفي عميق وكانت تُنشد في العبارة الخاصة بعد الخدمة المسائية في Yom Kippur كذلك في يوم التكفير. الشوق لإسرائيل وهو يعيش في المنفى وينسجم مع شوق الإحساس وهو الاتصال بالله.

ابن باقودا

بتسلسل تاريخي فأن نهجه بن يوسف بن باقودا (1040–1110م) لم يلتقِ ابن جبريل خلال جيله (عصره)، ولكنه عاصر الغزو المرابطي لأسبانيا وبداية التسامح الإسلامي تجاه اليهود. ولم يكن هدفه دراسة الدين بل ليكون إسرائيلياً ذا إيمان صادق، وتقياً، غيوراً وواثقاً بالله.

[1] تعذر ترجمة بقية الآراء الفلسفية واللاهوتية من هذه النصوص لأنها خارج عن موضوعات كتابنا.

عُين قاضياً للجالية اليهودية في سرقسطة، أفاد من بيئة التسامح والحياة العلمية الراقية في زمن بني هود الذين أسسوا هذه الحركة في هذه المدينة، وكان طموحه وهو قاضٍ معارضة الطاعة النصية (التقليد الأعمى) وشكلية القانون مع ذلك الذي يلد من داخل الإنسان من أجل حُب الله، حيث حدد لكتابه الأساسي اسماً " واجبات القلوب" الذي كتبه بالعربية وتُرجم للعبرية من قبل تيبون Tibbon عام 1161م. وأن كتابه (واجبات القلوب) بحث في سحر التصوف الشعبي، والكتاب مقسم إلى عشرة أقسام حول التأمل في وحدانية الله، والتصوف من أجل الحب (الإلهي).

لدينا هنا الهيكل (الجسم) الأساسي لليهودية كما وضحه لنا الربانيون عند هجرتهم إلى الشمال (الأسباني) ولا حاجة للإشارة إلى عدة أمثلة مطابقة في المسيحية، الاختلاف في هذا الموضوع أن كتاب (واجبات القلوب) يصر على الطريقة المتطرفة للكمال الحرفي النصي للقانون. هذا الكمال– هو من 613 وصية أو حِكم من التوراة– ولم يكن معروضاً بطريقة صارمة (شديدة) وطقوس باردة بل هو كمصدر للحياة الداخلية، واقتراح لتسلم الفوائد من الله، الحب والمعرفة المطلقة للمخلوق تجاه الخالق.

خوداه هاليفي (1075–1141م)

حياة الطبيب والشاعر والمفكر الذي ولد في تطيلة من إقليم نافاره عندما كانت تحت الحكم الإسلامي (قبل استردادها من قبل الممالك المسيحية) كانت حياته (محاطة) بأساطير على الرغم من أن خوداه هاليفي كان ذا شخصية جذابة خلال مدة الانتقال من القرن الحادي عشر إلى الثاني عشر. ومن الممكن أن يكون هو الذي ألف قصة الخواتم الثلاثة وفيها دافع عن تعزيز (تقوية) الثقة باليهود كحقيقة،

وكموقف ضمني دون الالتزام بالمسيحية والإسلام على الرغم من التسامح الذي نشره الفونسو السادس في قشتالة عندما زارها الشاعر اليهودي (خوداه). تعلم في سرقسطة وعاش في غرناطة عندما دعاه موسى بن عزرا في سنة 1090 تقريباً وبعدها عاش في قرطبة وفي لُسانه وأخيراً ذهب إلى طليطلة ووادي الحجارة حيث عاش شاعراً مشهوراً ومارس هوايته طبيباً في هذه المدن المسيحية على الرغم من أنه اعترف – كما قال– " لا أعرف بشكل جيد فن العلاج" وإنّ أقامته في هذه المدن جعلته يائساً وبائساً فقال " أعالج بابل لأنها ما زالت بائسة". كان الفرق كبيراً بين الظروف الجيدة تحت الحكم الإسلامي وظروف العنف في مملكة قشتالة إذ يوجد كثير من الدراما الحزينة لخوداه هاليفي وهو أول شاعر قال شعراً بالقشتالية (الأسبانية).

ولهذا استقر في الأراضي الأسبانية بدون قلق من حكامها ثم عاد له الأمل ولكنه كان يشعر ويعرف أنه لم يكن أسبانياً بل منفياً (مهاجراً) مجبراً على العيش بعيداً عن وطنه الحقيقي القدس الذي خصص له أبياتاً شعرية ملتهبة والذي سماه صهيون Sionoda:

" عند عدم السؤال عن صحة أسراك الذين يبحثون عن سلامك وهم أكثر اختياراً من حظائرك"؟.

من الغرب إلى الشرق ومن الشمال حتى الجنوب تتسلم التحية من القريب والبعيد

وفي جميع وسائلك، السلام (الصلاة) التي تذرف الدموع مثل الرذاذ (الندى) Hermon وتشتاق لتصبها فوق الجبال. عندما ابكي بؤسك (اذن) أنا صبي وعندما أحلم في العودة من أسرك فأنا قيثارة أغانيك.

في سنة 1120م تقريباً كتب لصديقه داود بن ناربونا (قائلاً):

" اشتاق إلى لحظة يعطيني الله فيها الحرية لكي اذهب إلى أماكن العلوم الحية ومصادر الحكمة" في نهاية المطاف أباشر السفر إلى الأرض المقدسة. كان في الإسكندرية ولكن لم نعرف إذا تمكن من الدخول إلى فلسطين، وتوجد أسطورة تدعي بأنه أُغتيل من قبل فارس عربي عندما أنشد مرثيته لصهيون على أسوار القدس. وفي هذه الحقبة كانت القدس عاصمة لمملكة أسسها على صهيون.

تم التعرف حتى اليوم على 827 (قصيدة) شعرية لخوداه هاليفي كلها كُتبت بالعبرية عدا اثنتين يؤكد فيهما التأثير العربي، والوطنية الإسرائيلية وعلاقته الحميمة بالقدس.

ولعدة حقائق فإن الكتاب الأكثر أهمية لخوداه هاليفي هو الصهيون الأكبر الذي احتوى على إعلان عن كتاب Qadush لمؤلفه عاميدا Amida من أجل Yom Kippur الذي يُعرف باسم " نشيد الخلق" وهذا الكتاب يشبه كتاب " البلاط الملكي" لابن جبريل أنجز كثيراً من المؤلفات الدنيوية بأسلوب عربي ولكنها تتميز بكثافة حول الحب الإلهي ومن أجل خدمة الصلوات (الطقوس) الحديثة.

كتب بين سنة 1130 وسنة 1140 كتابه الذي اكتسب شهرة وأهمية وهو "برهان وأساس الدين" وهذا الكتاب يُعرف بـ Kuzari لأنه يعرض صوراً بين رباني وملك الخزر الذي اهتدى للدين العبري مع كل خبرته (الكاتب) مينديث بيلايو عرض أهمية كبيرة لهذا الكتاب مصدراً للأدب القشتالي (الأسباني) اللاحق.

عاش خوداه هاليفي حياة بائسة. ثم استقر وكانت له اتصالات راقية مع المجتمعين المسيحي واليهودي في الشمال الأسباني (الممالك النصرانية) وقد تخلص من التأثير العربي تاركاً البراهين (للفلسفة)الأفلاطونية الحديثة ليؤكد رُقي الكتابات المقدسة مصدراً دقيقاً لأية معرفة.

ليس بطريقة أخرى فقد تصرف علماء اللاهوت المعاصرون. وهذا لا يعني نسيان قيمة العقل (الحق) أو احتقاره، ولكن عندما تكون الكتابات المقدسة والعقل (الحق) يدخلان في نزاع واضح. بدون شك من إيجاز السبب بعدم كفاية الموضوع.

وجود الله –يضيف– لا يستطيع أن يكون مفروضاً بشكل فلسفي، كذلك لا تحتاج (معرفة وجود الله) بالطريقة نفسها يعرف أنه أراد التنزيل (الوصي) ويُظهره تاريخياً عن طريق شعب إسرائيل. بقي تاريخ الشعب (الإسرائيلي) غير ثابت بسبب أمل العودة إلى صهيون وهكذا اهتدى خوداه هاليفي إلى مركز الفكر.

الله هو lahve، Adonai رب إبراهيم من إسحاق ومن يعقوب، المبارك الذي ظهر عبر خبرة تاريخية طويلة وليس السبب الأول، مبدأ فلسفي صِرف كما قال الارسطاليون.
هذا الامتياز حمله لإعداد استنتاجات مهمة بعثة الشعب الإسرائيلي الذي تنبأ (نبي نطق بالوحي) الله هو الذي اختاره (لأن الشعب الإسرائيلي " قلب كل الشعوب" كأداة وشهادة إعلان إسرائيل هي أرقى الشعوب لأن الله هو الذي خدمه في التاريخ. الشعب الإسرائيلي هو الشعب الوحيد الذي تسلَّم النبوة (النبؤة) يعني إعلان الحقيقة.

الأمة اليهودية والأرض الموعودة تكون بشكل كامل في فكر (خوداه) هاليفي العودة إلى القدس ليس بطموح بل قرار حاسم (نهائي) وحاجة ضرورية (لابد منها) ثم تدفق على المجتمع المسيحي خلال السنوات اللاحقة لموت خوداه هاليفي.

أعداد كبيرة من اليهود الذين يبحثون عن ملجأ ولكن الذين لديهم أمل مؤقت في الإقامة الجديدة (أسبانيا) يوجد حاجز ديني بين مجتمعين (شعبين) بهذه الطريقة:

إسرائيل شعب انقطع عن أرضه ومع ذلك تعلق (التزم) بيهوديته. هكذا كانت دعوة ربانية.

اليهود في شبه الجزيرة الأيبيرية والغزو الإسلامي[1]

في الحقيقة دامت تجربة اليهود خلال قرن طويل في ظل مملكة القوط الكاثوليك وبشكل متصاعد حتى أنه لا يطاق من أجل إنهاء النفي (الشتات) والعبودية فضلاً عن المهتدين (التوابين) الصادقين على امتداد كل مساحة المملكة. وبحجة وجود مؤامرة يهودية ضد أخيكا Egica – سواءاً حقيقة أم كذباً– فقد كانت فرصة لاتخاذ قرار التصفية أو في الأقل كما يبدو هكذا. فالآمالُ الأخيرة للبقاء على قيد الحياة للجالية اليهودية وانسجامها مع هويتها وأكثر من هذا أريد التقليل من تأثير وشرعية إصلاحات الملك أخيكا، هذه العوامل جعلته يضيق ذرعاً (طفح الكيل) على امتداد أكثر من قرن من الشك والقهر والمعاناة لليهود، مما حمله على حرمانهم من جميع الممتلكات سواء أكانت قليلة أم كثيرة، والعوائل المريبة (المشكوك في أمرها) يُفرق الأبناء عن الآباء والقرار الصارم بمنعهم من ممارسة عقائدهم. كانت هذه المشكلة الاجتماعية أكبر مأساة كنتيجة سياسية مع أسباب حقيقية مختلفة كما أوضحنا ذلك في الفصول السابقة. ونحن أمام مثال واضح عن التفاوت (الاختلاف) بين السباب والوسائل المعتمدة ولكن أيضاً توجد من بينها عوامل مستخدمة.

---

[1] اليهود في أسبانيا القديمة، ل. غارثيا غليسيا، ط. كريستينداد، مدريد 1978، ص199-201،
ترجمة أ.م.د. رضا هادي عباس – الجامعة المستنصرية – كلية التربية.

يبدو واضحاً بأن اليهود كانوا أقلية بسبب ضعف كفاءتهم للتفاعل مع الآخرين (التأثير) وقد حاولوا بكل الوسائل تحسين مستقبلهم.

الفتح الإسلامي (للأندلس) الذي بدأ سنة 711م وكان فاتحة خير لليهود إذ جاء الفاتحون البربر فقدموا للديانة اليهودية فرصة لانتهازها ويبدو أنهم أفادوا منها قدر الإمكان.

أبرزت المصادر العربية والمسيحية السابقة التعاون اليهودي مع الفاتحين الجدد ضد القوط. وهذه الحوليات تذكر لنا عن وصول طارق إلى طليطلة بحملة سريعة إذ وجد قلة من اليهود هم بقايا الجالية الإسرائيلية المنفية من قبل (الملك) أخيكا Egica.

لقد هربت كل الشخصيات البارزة في إدارة مملكة القوط وكبار رجال الدين (عند الفتح العربي الإسلامي للأندلس) وتوثق لنا المصادر العربية أن اليهود تطوعوا لحماية مدن أخرى كما سنرى.

(الكاتب) لوكاس دي لوكاس كتب عن العصر اللاحق الحساس وانتقد أعمال اليهود عند فتح أبواب المدينة للمسلمين عندما كان المسيحيون بعيدين عن الخطر في كنيسة سانتا ليوكاديا خارج المدينة.

(الكاتب) آشتور وصل إلى استنتاج أن مجموعة الأساطير التي تأخرت أسبابها الواضحة ضد السادية.

يكون من الممكن جداً الحق للمؤرخ الإسرائيلي التقويم السلبي عن عرض (فكرة) الـTudense حول الأعمال على الرغم من أن المصادر العربية خلت من عناصر (مواد) الأساطير كما أشار إلى استيلاء الفاتحين على مائدة سليمان على شكل غنيمة. (الكاتب) آشتور أثار بنفسه إلى أن اليهود استخدموا السلاح لحماية المدينة وصدر هذا عن سياسة كانت سيئة (تمثل النكبة).

وفي السنة نفسها 711م وقبل طليطلة سقطت قرطبة أمام قوات (القائد) مغيث كذلك في هذه المدينة لدينا شهادة عن تعاون اليهود مع القوات المهاجمة (العربية الإسلامية) التي ازدادت. وهذا الانتشار الفعال يوثق لنا إلى بقية المدن (الأسبانية). ونحن نعرف بأن مدينة أشبيلية قد سقطت من قبل موسى بن نصير سنة 712 م وهذا القائد العربي ترك اليهود بأشبيلية متطوعين، كذلك أدهش الفاتحين يهودُ غرناطة حيث كان عددهم كثيراً حسب الحوليات العربية. وبعض هذه الحوليات تذكر لنا: عند وصول المسلمين لأية مدينة فيها يهود يُكلفون بمسؤولية الحماية مع بعض الفاتحين من أجل استمرار الحملة بدون نقص في الجيش.هذا يوضح من غير شك بأن أحد المؤرخين يذكر تفصيلاً عن وصول طارق إلى مالقه إذْ ترك سكانها ولم يجد فيها يهوداً ولم يستغرب من الغياب لأن اليهود تجنبوا مواجهة المسلمين بل العكس تعاونوا معهم. أما بقية المدن فأن المصادر لا تذكر شيئاً عن نشاط اليهود مع الفاتحين مثل مدينة ماردة على سبيل المثال.أكثر المؤرخين المعاصرين لا يجرؤون – وبحق– على رفض الأخبار الواردة في المصادر العربية والمسيحية عن تعاون اليهود مع الفاتحين: فعلى سبيل المثال عد سانجث البُرنث كتقييم لليهود أنهم يمثلون الطابور الخامس. وبالرغم من صمت حوليات المستعربين وهي ليست بعيدة عن الأحداث وكذلك المصادر المسيحية فأن موضوع " خيانة اليهود" يرد في بعض مصادر العصور الوسطى وكذلك لا يمكن القول بوجود كثير من الأعداء بين اليهود المؤمنين في الإقليم والكنيسة القوطية. وعبر أحد العبرانيين (يهودي) الأسبان عن جني الثمار المرة عندما زُرع الألم والحقد والاستبداد الدموي.

بدءاً من هذه اللحظة يعني الفتح العربي الإسلامي للأندلس يبدو أن حياة اليهود في شبه الجزيرة الأيبيرية ستكون مختلفة وتتحسن بشكل أفضل.

بقدر تقدم حركة الاسترداد تعود مشاكل الظُلم والدم بعد الطرد ومتاعب محاكم التفتيش عن اليهود الذين (تنصروا) حيث التشكيك والنفي لهم وهو ما زال موضع عدم تقدير.